آراء فوقية حسين الكلامية

أ.د عليوان اسعيد
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الملخص:

تعد فوقية حسين من المفكرات الأوائل اللائي اتجهن إلى دراسة الفلسفة الإسلامية والدفاع عن الأشعرية باعتبارها عقيدة أهل السنة والجماعة، وقد ركزت على قضية المنهج، درست تطور علم الكلام الإسلامي في مرحلة ما قبل دخول الفلسفة اليونانية ثم ما بعد دخولها، كيف أثرت هذه الفلسفة وكيف تصدى لها المعتزلة، بينت إصابتهم وإخفاقهم لتتوصل إلى ظهور الأشعرية وتصحيح المسار، ولقد قدمت لنا منهج الأشاعرة بدقة، مميزة بينه وبين منهج المعتزلة وبينت لنا آليات تطبيقه فأبدعت في ذلك.

Résumé :

Fouquia Hocine est considérée comme l'une des premiers penseurs, qui se sont orientés vers l'étude de la philosophie islamique et la défense de l'acharisme, qui représente l'école théologique du sunnisme et en particulier la méthodologie « acharite ». Elle a étudié la dialectique Islamique, avant et après l'avènement de la philosophie grecque et l'influence de cette philosophie et comment les mutazilites se sont opposés à son impact. Elle a démontré les réussites et les échecs des mutazilites, pour aboutir à l'acharisme et rectifier la trajectoire. Elle nous a présenté la méthodologie des acharites, avec une remarquable précision en comparaison avec celle des mutazilites. Elle nous en a montré des mécanismes d'application avec excellence et créativité.

مقدمة :

تعد فوقية حسين من الرائدات الأوائل اللائي اتجهن إلى دراسة الفلسفة وبلغن فيها شأوا كبيرا، اتجهت إلى دراسة التراث الإسلامي والتشبع بقيمه، فدرست الفرق الإسلامية وحللتها تحليلا عميقا قبل أن تنكب على التراث الأشعري فتتبنى تصورات الأشاعرة باعتبارها آراء أهل السنة والجماعة، وهي

كذلك بحق، فتنتصر لهذه المدرسة على مدرسة المعتزلة التي كانت سباقة إلى الدفاع عن الإسلام ولكنها بالغت في تقديس العقل على حساب النص، فجاءت الأشعرية لتعيد الأمور إلى نصابها، وجاءت فوقية حسين لتعيد للأشعرية بريقها في وقت لم يعد فيه للمعتزلة تأثير يذكر ولكن موجة جديدة ظهرت تحارب العقل وتدعو إلى تجميده وشكلت ظاهرة جديدة في عالمنا اليوم، فقامت فوقية حسين بتحقيق التراث الأشعري وإحيائه، ومن ذلك فقد حققت "الإبانة" لأبي الحسن الأشعري (ت324هـ/935م) و"الكافية في الجدل" للجويني (ت478هـ /1085م) وكذا " لمع الأدلة في عقائد أهل السنة والجماعة " له أيضا وألفت في مناهج المتكلمين دفاعا عن الأشعرية ونشرا لها في هذا الوسط الجديد، وذلك مساهمة منها في إرجاع الأمة لوعيها بذاتها، وقد تصدت للتدريس بكلية البنات بجامعة عين شمس وتشرفت بعضوية المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، وقد حاولنا في هذا المقال تلخيص آرائها الكلامية مركزين على قضية المنهج، وجاءت خطتنا كما يأتي :

ضبط مفهوم عليم الكلام، تطور المنهج الكلامي، مراحل تطوره ما قبل دخول الفلسفة وما بعدها، مجهودات المعتزلة في نقد الفلسفة والدفاع عن العقيدة الإسلامية، الأشاعرة وتعديل منهج المعتزلة، المنهج عند الأشاعرة وضبط فوقية حسين له، الخاتمة.

ضبط مفهوم علم الكلام:

الكلام لغة: هو القول، و" هو أصوات متتابعة مفيدة " [1]، ومنه : كلّم يُكلّم تكليما : حدّثه [2]، ولكن لفظ الكلام هذا لا يتضمن أي إشارة إلى المناقشة والجدل حول مسائل الإعتقاد، أو الدفاع عن العقيدة الإسلامية، وقد ورد في القرآن الكريم كما وضحت فوقية حسين بمعان مختلفة، منها كلام الله بمعنى الوحي وهو القرآن الكريم وبمعنى كلام الله الذي كلم به عباده وكلمات الله، أي علم الله وعجائبه [3]، وهذا يدعونا إلى المعنى الإصطلاحي:

[1]- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم العربي الأساسي (لاروس)، دط، 1989 م، ص 1052.

[2] - المرجع نفسه، ص 1052.

[3] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ندوة قضايا المنهجية في الفكر الإسلامي، (جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، الجزائر، بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي) قسنطينة 9 – 12 سبتمبر 1989 م، هامش 2، ص 1.

الكلام إصطلاحا: بينت فوقية حسين أن للكلام معنيين يرتبطان بما ثار حول العقيدة:

1- الكلام الموصل إلى الشك، ويقصد به ما يثار من شبهات حول العقيدة.

2- الكلام المقصود به دحض ما يثار حول العقيدة بهدف الدفاع عنها [1].

وهذا هو الذي خاض فيه كبار المفكرين المسلمين وقد عرفوه تعريفات متعددة تمتاز بالتداخل والترابط والتنوع، نذكر منها:

1- تعريف الفارابي: (ت 339 هـ / 950 م) عرف الفارابي علم الكلام بأنه " ملكة يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحمودة التي صرح بها واضع الملة، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل " [2] ، هذا التعريف لعلم الكلام يتبلور عنه ما يأتي:

أ- علم الكلام ملكة: والملكة استعداد عقلي خاص لتناول أعمال معينة بحذق ومهارة [3]، هذه الملكة يجب أن تنمي بكثرة البحث والدراسة وإلا أفلت، وبذلك يصبح عالم الكلام هو من له القدرة الجبارة على الدفاع عن القضايا الإسلامية والإحاطة بالإسلام أصولا وفروعا، وهذا خاص وليس عاما لكل أحد.

ب- علم الكلام اقتدار : إن الملكة السابق ذكرها تجعل عالم الكلام ذا قدرة جبارة على الدفاع عن العقيدة الإسلامية، هذا الاقتدار يتطلب الإحاطة بالشريعة الإسلامية وبعقيدتها، وبالعقائد المخالفة وشرائعها وما تتوقف عليه من طرق الأدلة والبراهين، وذلك حتى يتسنى له أن يزيفها.

جـ - مهمة عالم الكلام: في تصور الفارابي، **الدفاع عن العقيدة والشريعة معا،** وهذه القضية تعد من الأهمية بمكان، وهو ما قرره علماء الكلام المحدثون باعتبار الدفاع عن الشريعة أيضا من مهام علم الكلام الجديد، ولقد بين الفارابي هذه القضية بدقة وبين الفرق بين تناول كل من الفقيه والمتكلم لهذه القضية، ونص كلامه: " وهذه الصناعة - علم الكلام – تنقسم جزءين أيضا، جزء في الآراء وجزء في الأفعال – وهي غير القصة – لأن الفقيه يأخذ الآراء والأفعال التي صرح بها واضع الملة مسلمة ويجعلها أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها، والمتكلم ينصر الأشياء التي يستعملها الفقيه أصولا من

---

[1] - المصدر نفسه، ص 1.

[2] - أبو نصر الفارابي، إحصاء العلوم، تحقيق عثمان أمين، ط 3، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1968 م، ص 131.

[3] - لاروس، ص 1151.

غير أن يستنبط منها أشياء أخرى " [1] ويمكن للإنسان أن يجمع بين الحسنيين إذا كان متكلما وفقيها في آن واحد [2].

2- تعريف الغزالي : (ت 505 / 1111 م) يعرف الغزالي علم الكلام بهدفه فيقول: " وإنما مقصوده – أي علم الكلام – حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة " [3]، وقد بين الغزالي مبررات هذا التعريف بأن الله عز وجل ألقى إلى عباده على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم عقيدة هي : الحق على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم. كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار ، ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أمورا مخالفة للسنة فلهجوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها. فأنشأ الله طائفة المتكلمين وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب يكشف على تلبيسات أهل البدعة المحدثة على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام [4] ويكفي دلالة على صحة كلام الغزالي أن الباطنية ازدهرت في عصره أيما ازدهار مما جعله يرد على فضائحها. وجعل من مضامين علم الكلام الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد الإيمانية لتناسب كثير من مذاهب المبتدعة ومذاهبهم [5].

نتوصل مما سبق إلى ما يأتي:

- علم الكلام خاص بذوي الملكات الخاصة وليس عاما لكل واحد.
- استخدام صيغة الاقتدار تنبيه على أنه يجب أن يكون المتكلم متبحرا في المنقول والمعقول وعلى علم تام بجميع العقائد والملل والنِّحل وطرق الاستدلال المختلفة.
- لعلم الكلام دور إيجابي يتمثل في إثبات صحة العقيدة بالعقل، إضافة إلى النقل.
- لعلم الكلام دور دفاعي يتمثل في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وشريعتها السمحة ضد الخصوم المنكرين لها من مختلف الملل والنِّحل والمذاهب

[1] - الفارابي، المصدر السابق، ص ص 131، 132.
[2] - المصدر نفسه، ص 132.
[3] - أبو حامد الغزالي، المنقد من الضلال، تحقيق عبد الحليم محمود، د ط، مطبعة حسان، القاهرة، د ت، ص 96.
[4] - المصدر نفسه، ص ص 99، 98.
[5] - عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، د ط، دار العودة، بيروت، دت، ص 369.

وذلك بتقويض أدلتها وبإبطلال شبهها بالأدلة العقلية والعلمية وبالتالي فتح الطريق أمام توغل القرآن الكريم [1].

هذا النوع من الكلام تطلق عليه فوقية حسين **الثمين من الكلام** وذلك في مقابل **الغث من الكلام** وهو الخوض فيما لا يملك العقل إدراكه وهو الغيب، وكذا ما يثار من شبهات حول الإسلام. وهنا تتوصل فوقية حسين إلى المنهج الكلامي وتطوره [2].

تطور المنهج الكلامي : من المعروف أن علم الكلام مر بخمسة أدوار، يمكن أن نلخصها فيما يأتي:

1- **طور النشأة :** ابتداء من القرن الأول الهجري وأوائل الثاني وفي هذه المرحلة أخذت تنشأ فيها أيضا مختلف العلوم الإسلامية. نشأ هذا العلم مع واصل بن عطاء (ت 131 هـ/748 م) وعمرو بن عبيد (ت 144 هـ / 761 م).

2- **طور الاكتمال والنضج:** وقد استغرق هذا الطور القرون 3، 4، 5 هـ وقد توسع في هذه المرحلة المنهج المستعمل في الاستدلال ليشمل المنهج العقلي والنقلي معا. كما شرع المتكلمون في استخدام المنهج والمباحث الطبيعية في الاستدلال على مسائل العقيدة، واتجه بعض المفكرين أيضا إلى استخدام المنطق كمنهج ومزجوا علم الكلام بالفلسفة وذلك ليتمكنوا من الرد على المعارضين.

3- **طور التنظيم والترتيب:** استغرق القرون 6، 7، 8 هـ.

4- **طور الجمود والتقليد:** من القرن 9 إلى 13 هـ.

5- **طور البعث والتجديد :** وبدأت هذه المرحلة منذ قرن [3] ، ويمكن تصنيف فوقية حسين ضمنها وقد قامت برصد التطور السابق ذكره ولكنها لم تركز على التأريخ، بل لجأت - وهذا ما يجب أن يكون - إلى التحليل والتفسير، فقسمت مراحل تطور المنهج الكلامي، إلى قسمين، ما قبل دخول الفلسفة اليونانية وما بعد دخولها.

مرحلة ما قبل دخول الفلسفة اليونانية والمنهج : كان المنهج يعتمد أساسا على الاستنباط من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة [4] وتقديمهما على أي نسق

---

[1] - علي عبد الفتاح المغربي، الفرق الكلامية الإسلامية مدخل ودراسة، ط 1، مكتبة وهبة، القاهرة، 1986 م، ص 12.

[2] - فوقية حسين، المصدر السابق، ص ص 2، 3.

[3] - عبد المجيد النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997 م، ص ص 20، 23.

[4] - فوقية حسين، المصدر السابق، ص 2.

فكري من نتاج العقل الإنساني فيما يتعلق بالغيبيات [1]، فتستنبط منهما المعاني السامية ليدحض بها آراء المشاغبين المثيرين للشبهات، وقد استندت إلى وقائع كثيرة صحيحة لتبرهن بها على صحة هذا التصور ابتداء من سيدنا علي (ت 40هـ / 661م) رضي الله عنه وكرم وجهه إلى الإمام الشافعي (ت 204 هـ / 828 م).

سيدنا علي رضي الله عنه وكرم وجهه: ونكتفي بالإشارة إلى نقضه للجبرية.

نقضه للجبرية [2]: بين سيدنا علي التناقض بين القول بالجبر والقول بالتكليف، لأنه إن وجد الجبر انتفى التكليف وإن وجد التكليف انتفى الجبر. ولكن التكليف ثابت، فإذن لا جبر، وهنا جمع سيدنا علي بين الدليلين النقلي والعقلي معا وتوصل إلى نقض أقوال الجبرية من خلال تدبر أي القرآن والسنة.

و يقوم هذا المنهج على ضبط المفاهيم وتحديد التصورات بدقة حسب دلالة النصوص [3]. وهذا يعني أن نشأة علم الكلام بدأت في عهد الصحابة.

عبد الله بن عمر: (ت 73 أو 74 هـ / 692 أو 693 م) نقض أقوال الجهمية [4] وجادلهم بالتي هس أحسن، ثم تبرأ منهم.

رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز (101 هـ/720م) في الرد على القدرية

- **رد أهل السنة على الخوارج والشيعة [5]**
- **الإمام أبو حنيفة** (ت 150 هـ/767 م) أطلق على علم الكلام مصطلح الفقه الأكبر، وهذا له دلالته حيث يعطينا صورة عن أهمية هذا العلم عنده، وأنه يدور في فلك الفقه، أي النصوص المنزلة [6].

---

[1] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة في أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، تقديم وتحقيق وتعليق فوقية حسين، د ط ، دار الأنصار، القاهرة، 1977 م، ج 1، ص 28.

[2]- الجبرية: إسناد فعل العبد إلى الله بحيث يصير العبد بمنزلة الجماد، لا إرادة له ولا اختيار، وقد ظهرت في عهد الصحابة، وصارت مذهبا في العهد الأموي (التهانوي، كشاف إصطلاحات القنون د ط، شركة خياط، بيروت، 1966 م، ج 1، ص 199).

[3] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 2.

[4] - الجهمية نسبة إلى الجهم بن صفوان (ت 128 هـ / 745 م) صاحب مذهب الجبر، أول من وضع التأويل العقلي فتأثر به المعتزلة وتأثر الشيعة بالمعتزلة (علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ط 8، دار المعارف، القاهرة، 1980 م، ج 1، ص ص 328، 329.

[5]- فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 4.

[6] - المصدر نفسه، ص 4..

الإمام الشافعي (204 هـ / 828 م) اهتم بالقضايا الكلامية ورد على المخالفين من غير المسلمين، فله آراء في تصحيح النبوة كما رد على البراهمة [1]، وتصدى تلاميذه للقائلين بخلق الأفعال [2] وهذه القضية تعد من الأهمية بمكان وذلك أن الشافعي يقدم عادة في تيار الرافضين لعلم الكلام، وقد أورد السيوطي (ت911 هـ / 1505م) نصا طويلا يبين فيه تحريم الشافعي لعلم الكلام [3].

تتوصل فوقية حسين من خلال ما سبق إلى أن الغالب على هؤلاء هو مجادلة الخصم انطلاقا من النص المنزل قرآنا وسنة ليقدموا له ما ينقي ذهنه من فهم خاطئ للنصوص ورد عليه إما من بيئته أو من الثقافات الأجنبية التي كان أصحابها يكيدون للإسلام والمسلمين ويقوم منهج الدفاع هنا على تحديد أطروحة الخصم بدقة لإعداد النقض المناسب. ولما كانت أغلب الأطروحات نابعة في هذه المرحلة من البيئة الداخلية أي من عقلية عربية كالقول بالجبر والحرية المطلقة، ومرتكب الكبيرة والإمامة، فإن النقض كان يقوم على النهل من النصوص المنزلة حيث استقى العلماء فيها الحجج والبراهين للقضاء على الخلل الذهني الذي نشأت منه تلك الأطروحات، ويسمى هذا المنهج بـ**منهج السلف**، وتسمية فوقية حسن **منهج الفقهاء** وذلك لأن المدافعين عن العقيدة اتبعوا أسلوب الفقهاء الذين كانوا يرجعون إلى النص المنزل لتبيين " **العلة** " في الحكم الخاص بالنازلة التي لم يرد فيها نص [4]، ولا غرابة في هذا، فكل العلوم التي نبعت في الملة الإسلامية إنما نبعت من القرآن والسنة، ومنها علم الكلام الذي لم يشذ عنها، فكان رجاله يتدبرون في النصوص ويتبينوا دلالتها ويجتهدون في تفسيرها، سواء فيما يستدلون به أو فيما يستدل به خصومهم، فأفحموهم وأسكتوهم إلى حد لجوء الخصوم إلى كتمان نزاعاتهم نحو الفهم الخاطئ للنصوص[5]. وقد استخدم علماء الكلام هؤلاء طريقة الجدل.

---

[1] - البراهمة : هي الهندوسية، يطلق عليها البرهمية نسبة إلى الإله براهمة، ويسمى كهنتها البراهمة كتابها المقدس هو الفيدا Veda ينكرون الآخرة، ويوقنون بالتناسخ، وقد أثرت في بعض المفكرين المسلمين (عبد المنعم الحقي، الموسوعة الفلسفية، ط 1، دار ابن ويدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، د ط، ص ص 502، 503.

[2] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 4.

[3] - جلال الدين السيوطي، صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام، د ط، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص ص 15 -33.

[4] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص، ص 5، 7.

[5] - المصدر نفسه، ص ص 7، 8.

منهج الجدل: الجدل لغة : يقال : دِرع مجدول، وحَبْل جديل إذا كان مستحكم النسج والفتل، وقصر مُجدَّل إذا كان حصينا محكما بناؤه [1].

الجدل اصطلاحا : هو " إظهار المتنازعين مقتضى نظرتهما على التدافع والتنافي بالعبارة، أو ما يقوم مقامها من الإشارة والدلالة " [2].

هذا التعريف تتبناه فوقية حسين [3] وتبين بأنه رغم استخدام المتكلمين لمنهج الفقهاء إلا أن الجدل الفقهي يختلف عن الكلامي.

الفرق بين الجدل الفقهي والجدل الكلامي:

الأول فيه تساوي بين الطرفين بحيث تعتبر كل الآراء صحيحة، وأحسن مثال على هذا هو المذاهب الفقهية، لكن الجدل الكلامي يقوم على التدافع والتمانع لا على النسبية والاحتمالية، وإذن لا تساوي فيه بين الطرفين، بين أهل السنة وبين الحائدين عن منهج الصواب؛ لأن أصول العقيدة واحدة عكس المذاهب الفقهية[4]، وهو يختلف أيضا عن الجدل اليوناني.

الفرق بين الجدل الكلامي والجدل اليوناني:

إذا كان الجدل الكلامي يختلف عن الفقهي فيما ذكر، فإنه يختلف أيضا عن الجدل اليوناني، ذلك أن الهدف من الجدل الكلامي: التعرف على عين المحدود وصفته الذاتية، أي على حقيقته [5]، والمعرفة المترتبة على حصوله يقينية تمثل الحق ونؤكده. بينما المعرفة الجدلية عند مفكري اليونانية ظنية [6] ومن هنا كان الاختلاف الجذري بين المعرفة المترتبة على الجدل في التصور الكلامي الإسلامي، وبين المعرفة المترتبة على إجراء الجدل عند أرسطو مما يدل على أصالة الفكر الجدلي وأسلوب تحقيقه عند المسلمين واستقلاله عن أي رافد خارج علوم القرآن والسنة، فالجدل عند اليونان ما تألف من مقدمات مشهورات أو تقريريات، سواء كانت واجبة أو ممكنة أو ممتنعة ويوصل إلى نتائج ظنية [7]. بينما الجدل عند المسلمين يوصل إلى نتائج يقينية وهو يمثل

---

[1]- الجويني إمام الحرمين، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين، د ط، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979 م، ص 20.

[2]- المصدر نفسه، ص 21.

[3] - فوقية حسين، تقديم كتاب الكافية في الجدل للجويني، ص 30.

[4] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص ص 8، 9.

[5] - فوقية حسين، تقديم الكافية في الجدل، ص 35.

[6] -المصدر نفسه، ص ص 52، 53.

[7] - ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، تحقيق سليمان دنيا، ط 2، دار المعارف، القاهرة، دت، ق 1، ص 461.

منطق البرهان عند أرسطو[1] وهو القياس المؤلف من المقدمات الواجب قبولها سواء كانت ضرورية فينتج منها الضروري على نحو ضرورتها، أو ممكنة فينتج منها الممكن[2]، وهو أوسع مدى بالنسبة لصلاحية التطبيق على مختلف الموضوعات؛ لأنه لا يتقيد بنسق منطقي محدود (القياس الأرسطي) ولكنه يستعين بأساليب البحث على اختلافها [3].

تتوصل فوقية حسين بعد ما سبق إلى أن الجدل في مجال العقيدة – رغم ما سبق – لا يجب أن يتعدى الشرح والبيان والتوجيه [4] ويقوم على تدبر النص المنزل لفهمه في ضوء أصول التفسير، وهي تفسير القرآن بالقرآن وبالحديث، معرفة أسباب النزول ، لا تأويل إلا بقرينة، إتقان اللغة العربية، معرفة الخصوص والعموم، مراعاة الأخذ بالإجماع [5].

هذه الأصول هي التي يقوم عليها منهج أهل السنة في رد حجج الخصوم بالنص المنزل الذي يجب أن يكون هو أساس المناقشة لفكر المناوئين على أن يفهم من خلال تطبيق أصول التفسير.

ويقوم منهج علماء الكلام هذا على الخطوات الآتية:

1- حصر الآفة الذهنية والتعرف على أبعادها بدراسة الخلفية الذهنية لصاحبها.
2- تدبر النصوص المنزلة لمعرفة الحقيقة المنزلة بخصوصها.
3- تطبيق أصول التفسير عند تناول النص المنزل مع الاسترشاد برأي الصحابة رضي الله عنهم.
4- الثبات أمام الحقيقة التي يساندها النص.
5- الاستعانة بوسائل الإيضاح نظرية وعملية لتقريب معاني النصوص للأذهان [6].

هذه المرحلة في تصورنا تتناسب تماما مع تعريف الغزالي السابق ذكره لعلم الكلام، وكان هذا قبل دخول الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي.

مرحلة ما بعد الفلسفة اليونانية:

[1] - فوقية حسين، تقديم الكافية في الجدل، ص 53.
[2] - ابن سينا، المصدر السابق، ص 461.
[3] - فوقية حسين، تقديم الكافية في الجدل، ص 53.
[4] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 9.
[5] - سنعود للحديث عن هذه العناصر السبع أثناء الكلام على منهج الأشعري والأشاعرة.
[6] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 11.

بعد دخول الفلسفة اليونانية إلى العالم الإسلامي بغثها وسمينها تأثر بها كثير من المسلمين، وكان مما تتناقض فيه هذه الفلسفة مع الإسلام:

- القول بقدم العالم، وأن الحقيقة في المتعقل.

القول الأول يتناقض مع انفراد الله بالقدم وخلقه للعالم.

و القول الثاني : يعني حقيقة الوجود. بمعنى أنه موجود في العقل وليس موجودا وجودا عينيا كتليا في الواقع الخارجي منفصلا عن الذات العارفة، مما يعني أن العالم ليس موجودا كأثر لقدرة الله عز وجل على الخلق. بل يجعل الوجود غير موجود " لأن تعريف الوجود بما هو موجود يجعله ماهية متعقلة فقط دون أن يكون له أي واقعية "[1] وهو ما جعل فلاسفة يرون بأنه " لا تعريف له، إذ ليس له حد ولا رسم، فلا جنس فوقه يمكن إدراجه تحته، ولذلك قال عنه هيجل Hegel (1770 – 1831 م) : إنه اللاتحدد الخالص ومن ثم لا يمكن التفكير فيه، لأنه سيكون تفكيرا في خواء أو في عدم بمعنى أصح، ولأنه يعلو على كل المتقابلات والمعقولات يسمى متعاليا [2]"، لكن واقعية العالم أساس لازدهار العلوم الجزئية.

نتوصل مع فوقية حسين إلى أن الفكرتين القائلتين بقدم العالم والحقيقة في المتعقل رغم تناقضهما مع العقيدة الإسلامية، فقد زاد الأمر خطورة ورودهما في صورة اتساق منطقي خلاب جعل بعض المسلمين ينبهرون بذلك الاتساق ويذهلون عن المحتوى [3] ، ذلك أن أصحاب هذه الفلسفة يعتمدون على التعريفات الناتجة في الغالب عن التأمل ثم يصيغونها في قياس مبني على مقدمتين ونتيجة، فتأثر المسلمون إذن بهذه الفلسفة وبالقياس الأرسطي وحاولوا توظيف ذلك في الدفاع عن الإسلام فعرفوا العالم وجعلوا له الشكل اليوناني، فقالوا: العالم جواهر وأعراض [4] فقسموا العالم إلى جوهر وعرض [5] وأبطلوا بهما المقولة الأولى : القول بقدم العالم. بحيث أعطوا لكل من الجوهر والعرض دلالة تؤدي بكل منهما إلى إثبات حدوث العالم، لا قدمه وهو ما قام به أوائل المعتزلة وهاهي إشارة إلى بعض مجهوداتهم في هذا.

---

[1] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 12.

[2] - عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، ط 1، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، دت ، ص 524.

[3] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 13.

[4] - المصدر نفسه، ص 13.

[5] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة عن أصول الديانة لابن الحسن الأشعري، د ط، دار النصار، القاهرة، 1977 م، ج 1، ص 25.

مجهودات المعتزلة في نقد الفلسفة اليونانية والدفاع عن العقيدة الإسلامية:

أول ما قام به أوائل المعتزلة كما ذكرنا هو تعريفهم للجوهر بأنه ما يقبل العرض وتعريف العرض بأنه صفة آيلة للزوال، ثم وضعوا أصولا توصلوا بها إلى الاحتفاظ بالموجود في ذاته وليس الموجود المتعقل، وتوصلوا من الجوهر والعرض إلى إثبات الحدوث، وذلك في حين كان هذان المصطلحان يوصلان إلى القول بقدم العالم فخرجوا من مأزق القول بقدم العالم[1]. ولكنهم لم يتمكنوا من الخروج من مأزق القول بأن الحقيقة في المتعقل، ذلك بأنهم انطلقوا في إثبات الحدوث على إثبات استحالة وجود الجوهر دون عرض؛ لأن ذلك يبقى على كتلية الموجود خارجيا، ولكن تعريفهم للفظ " شيء " الذي هو الموجود الخارجي المادي ليبطلوا به التصور اليوناني للوجود قضى على هدفهم؛ لأنهم عرفوا الشيء بأنه المعلوم والمعلوم هو الشيء.

وقد تمكن الأشاعرة من تصحيح المسار بأن عرفوا الشيء بأنه هو الموجود والموجود هو الشيء[2].

ومهما يكن من أمر فإن المعتزلة حرصوا على المضمون الفكري الإسلامي وصاغوه في شكل يوناني بعد تخليص تلك القوالب من التصورات اليونانية بهدف تخليص أذهان المنبهرين بالفلسفة اليونانية من براثن الأفكار المناقضة للعقيدة الإسلامية، ومن أهدافهم إضافة إلى الدفاع عن الإسلام، إبقاء عقول العوام المنبهرين بالفلسفة تحت تأثيرهم. فاستخدموا ألفاظا وتعريفات من الفلسفة اليونانية بمضمون إسلامي، ولكن المعتزلة بالغوا في تقديم العقل على النقل وتحولوا إلى مهاجمين لآراء أهل السنة والجماعة، واستدلت فوقية حسين على هذا بمحنة أحمد بن حنبل (ت 241 هـ / 852 م) [3]، وهنا يمكن أن نلخص منهج المعتزلة بأنه ابتعد عن الدليل النقلي ليركز على العقل تحت تأثير أساليب الفلسفة اليونانية فكانوا ينطلقون من تعريفات يضعونها في المقدمة الأولى والثانية ثم النتيجة، الشكل يوناني والمضمون إسلامي وذلك لنفي المقولتين السالفتي الذكر: **قدم العالم والحقيقة في المتعقل**. وتوصلوا إلى عقم القياس الأرسطي. أخذوا بعض المصطلحات وخلصوها من طابعها اليوناني، ومن ذلك: **الجوهر والعرض**، مع قبول قسمة الوجود العيني قسمة ذهنية لا تعني

[1] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 14.
[2] - المصدر نفسه، ص 15.
[3] - المصدر نفسه، ص 15، 16.

سوى فرض ذهني، وقد استقوا تلك الألفاظ من الفلسفة وأعطوها مضامين إسلامية مستقاة من العقيدة الإسلامية بعد أن ألبسوها الثوب اليوناني، فالمعتزلي مثلا كمفكر مسلم لا يستنتج الحدوث مما وضعه كمقدمات وإنما هو يعلم به ويؤمن به مسبقا، ولكنه يريد أن يعطيه الصبغة المنطقية الفلسفية [1] ويمكن أن نبرز الفرق الجوهري بين اليوناني والمعتزلي في القول بقدم العالم وعدم وجوده في الواقع أن اليوناني يقوم بعملية استنتاج لحقائق تبدو صحيحة الاتساق شكلا، ولكنها لا تصدق في الواقع الخارجي، بينما المعتزلي والمسلم يقدم نتيجة صادقة مع الواقع؛ لأنه تكوّن أصلا مع مفهوم الحقيقة والواقعية، وتعلم كيف يكون معبرا عن واقع صادق هو من خلق الله عز وجل كما تقول فوقية حسين [2]، ولكن المعتزلة مع هذا لم يسلموا من بعض مزالق الفلسفة اليونانية [3] رغم أنهم أول فرقة إسلامية ذات مذهب متكامل ومتناسق يتكون من خمسة أصول، هي:

1- التوحيد، 2- العدل، 3- الوعد والوعيد، 4- المنزلة بين المنزلتين 5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر [4].

ومن تلك المزالق: نفي الصفات، تعريفهم للشيء كما ذكرنا، المبالغة في النزعة العقلية، إنكار رؤية الله يوم القيامة إلخ فظهر الأشاعرة لتصحيح المسار.

الأشاعرة وتعديل منهج المعتزلة:

الأشاعرة نسبة إلى أبي الحسن الأشعري (ت 324 هـ / 935 م) الذي كان معتزليا أربعين سنة ثم اعتزل المعتزلة بعد اعتكاف في بيته 15 يوما يفكر ويتأمل ويستخير الله حتى اطمأنت نفسه للرجوع إلى مذهب أهل السنة والجماعة[5] وذلك بعد عجز أستاذه، وزوج أمه أبي علي الجبائي (303 هـ / 915 م) على أن يجيبه في قضية الصلاح والأصلح عن اعتراض الأخ الكافر، وهاهو نص المناظرة:

---

[1]- المصدر نفسه، ص 19.

[2]- المصدر نفسه، ص 19.

[3] - المصدر نفسه، ص 20.

[4] - عبد الرحمان بدوي، مذاهب الإسلاميين، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 2008، ص55.

[5] - عبد القادر الأرناؤوط، تقديم الإبانة عن أصول الديانة لأبي الحسن الأشعري، ط 1، مكتبة دار البيان، دمشق، 1981 م، ص ص 7، 8.

" سأل أبو الحسن الأشعري أستاذه أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة: أحدهم كان مؤمنا برا تقيا، والثاني كان كافرا فاسقا شقيا، والثالث كان صغيرا – فماتوا – فكيف حالهم؟

فقال الجبائي: أما الزاهد ففي الدرجات، واما الكافر ففي الدركات، واما الصغير فمن أهل السلامة.

فقال الأشعري: إن أراد الصغير أن يذهب إلى درجات الزاهد، هل يؤذن له؟

فقال الجبائي: لا؛ لأنه يقال له: إن أخاك إنما وصل إلى هذه الدرجات بسبب طاعاته الكثيرة وليس لك تلك الطاعات.

فقال الأشعري: فإن قال ذلك الصغير: التقصير ليس مني، فإنك ما أبقيتني ولا أقدرتني على الطاعة.

فقال الجبائي: يقول الباري جل وعلا: كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت وصرت مستحقا للعذاب الأليم، فراعيت مصلحتك.

فقال الأشعري : فلو قال الأخ الكافر: يا إله العالمين! كما علمت حاله فقد علمت حالي، فلم راعيت مصلحته دوني؟ ! فقال الجبائي للأشعري إنك مجنون" [1] [2].

جاء الأشعري إذن من المعتزلة ليتبنى منهجهم ويرد عليهم بأسلوبهم ولكن بعد أن طوعه لمذهب أهل السنة والجماعة، فدرس الأشاعرة أساليب اليونان مثل المعتزلة ولكنهم أدركوا المدى الذي يمكن أن توصل إليه، فبدل أن يتبنوا تعريفاتهم فقد حرصوا على أن ينوعوا تعريفات الألفاظ التي تعرضوا لها، ومن ذلك مثلا تعريفهم للعالم، ففرقوه بتعريف السلف، وبتعريف اليونان فقالوا:

العالم كل ما سوى الله " ، وقالوا : " العالم جواهر وأعراض " ولكنهم عكس غيرهم قدموا للتعريف للعالم جواهر وأعراض بتعريف الموجود العيني الكتلي المميز للتصور الإسلامي للوجود، فعرفوا الشيء بأنه هو الموجود، والموجود هو الشيء " فتجنبوا خطأ الوقوع في قبول وجود متعقل فقط لا وجود له في الواقع العيني[3] كما توصلوا إلى عدم القول بالأصول الخمسة فرفضوا ما ينبني عليها من نفي الصفات والقول بخلق القرآن وإنكار رؤية الله عز وجل، وجاء كلامهم عن موضوعي الوجود: وجود الله ووجود العالم وفقا للتصور الإسلامي

[1] - عبد الرحمان بدوي، المرجع السابق، ص 499.
[2] - وقد وردت هذه المناظرة بعدة روايات، (بدوي المرجع نفسه، ص ص 498، 499).
[3] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 20.

الخالص بعيدا عن مزالق المعتزلة التي جرهم إليها المبالغة في استخدام العقل في مجال الغيب[1].

وتبرهن فوقية حسين على صحة ما تقول بالنظر إلى محتوى كتب الأشعري حيث نجده دفاعا عن تصور أهل السنة والجماعة ورد على المعتزلة وغيرهم، ومن ذلك :

فمما ورد في الإبانة:

- إبانة قول أهل الحق والسنة.
- في الكلام في إثبات رؤية الله بالأبصار.
- في الكلام في أن القرآن كلام الله غير مخلوق.
- في الكلام في الإرادة والرد على المعتزلة.
- في تقدير أعمال العباد والاستطاعة والتعديل والتجوير إلخ [2].

ومما ورد في اللمع:

- وجود الله وصفاته.
- الكلام في القرآن والإرادة.
- الكلام في الرؤية.
- الكلام في القدر.
- الكلام في الاستطاعة.
- الكلام في التعديل والتجوير، في العام والخاص والوعد والوعيد [3].

نتوصل الآن إلى ضبط منهج الأشعري والأشاعرة:

المنهج عند الأشاعرة: قدمت لنا فوقية حسين بعد دراسة استقرائية رائعة أصول المنهج عند الأشاعرة كما يأتي:

1- **إعطاء الأولوية للنص المنزل قرآنا كان أم سنة:** ونلاحظ هذا الأصل في كل ما عالجه في الإبانة [4].

2- **تفسير القرآن بالقرآن :** وذلك في القضية موضع الإشكال بحيث تستعرض كل الآيات المتعلقة بالموضوع للوصول إلى التفسير

---

[1] - المصدر نفسه، ص ص 20، 21.

[2] - أبو الحسن الأشعري، الإبانة عن أصول الديانة، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط، ط 1. مكتبة دار البيان، دمشق، 1981 م، ص 205.

[3] - أبو الحسن الأشعري، اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، ضبط وتصحيح محمد أمين الضناوي، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت، ص ص 99، 100.

[4] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة للأشعري، ص 111.

الصحيح، ومن ذلك قضية رؤية الله [1] بمعنى تطبيق المنهج الإستقرائي على محتوى القرآن الكريم.

3- **تفسير القرآن بالحديث:** وذلك عملا بأصول التفسير الصحيح حيث يستند إلى الحديث النبوي لإثبات القضية موضع النظر، ومن ذلك قضية رؤية الله عز وجل [2].

4- **الأخذ بالإجماع :** " وهو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي في واقعه " [3]. وقد جعله الأشعري من أصول منهجه، وقد أثبت به رفع سيدنا عيسى عليه السلام إلى السماء [4] ، والشفاعة للرسول صلى الله عليه وسلم [5].

5- **إبقاء القرآن الكريم على ظاهره إلا بحجة:** ومما استخدم فيه هذا الأصل : إثبات الرؤية ردا على الذين فسروا قول الله عز وجل " **إلى ربها ناظرة** " [6] أي إلى ثواب ربها ناظرة [7].

6- **مراعاة أصول اللغة ومعاني الألفاظ طبقا لما ترد فيه من استعمالات عند العرب:** وذلك أن الله خاطب العرب بلغتها [8] ومن ذلك تحديد الأشعري لمفهوم الإيمان بأنه التصديق بالله دون العمل، وعلى ذلك إجماع أهل اللغة التي نزل بها القرآن كما بين الله عز وجل، قال تعالى : " **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه** " [9]، وقال أيضا: " **بلسان عربي مبين** " [10]، وقال أيضا على لسان إخوة يوسف " **وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين** " [11]، أي بمصدق لنا [12].

---

[1] - المصدر نفسه، ص ص 122، 125.
[2] - المصدر نفسه، ص ص 125، 126.
[3] - عبد الوهاب خلاف، علم أصول الفقه، ط 7، دار النفائس للنشر والتوزيع، الجزائر، 1996 م، ص 45.
[4] - الأشعري، مقالات الإسلاميين، تحقيق فوقية حسين، ص 115.
[5] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة، ص 127.
[6] - سورة القيامة، الآية 23.
[7] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة، ص 127.
[8] - المصدر نفسه، ص 128.
[9] - سورة إبراهيم، الآية 4.
[10] - سورة الشعراء، الآية 195.
[11] - سورة يوسف، الآية 17.
[12] - أبو الحسن الأشعري، اللمع، ص 78.

7- **مراعاة أسباب النزول :** ومن ذلك استدلاله على جواز رؤية الله عز وجل يوم القيامة بمناسبة سؤال بني إسرائيل لموسى " **أرنا الله جهرة** " [1] [2].

8- **مراعاة العموم والخصوص: (ضبط دلالة الألفاظ على المعاني)** ومن ذلك تأكيده للرؤية في الدار الآخرة، ففسر قوله عز وجل " **وهو يدرك الأبصار** " [3] على العموم أنه يدركها في الدنيا والآخرة، أما " " **لا تدركه الأبصار** " [4] ففسرها على أنها أخص من قوله " **وهو يدرك الأبصار** " وذلك لأنه معطوف على الأول، فكان الأول أخص [5].

هذا هو منهج الأشعري، وهو يختلف اختلافا بينا عن منهج الاعتزال، كما يجب أن نشير إلى قضية أخرى في هذا الاختلاف، أن أدلة الأشعري الذهنية تعتمد على معان مستقاة من النص المنزل أصلا. بينما أدلة المعتزلة ينطلقون فيها من الأنسقة الذهنية ودلالتها مما يجعل كلا منهما غير الآخر [6].

يتم تطبيق هذا المنهج كما يأتي:

يحدد المتكلم المشكلة موضوع النظر بجمع الأدلة التي ساقها الخصم ومتابعة مدى صحة فهمه لها، ثم جمع النصوص المؤكدة للرأي الصحيح وشرحها مع بيان أسلوب فهمها، وهو تطبيق أصول التفسير التي تلقي الضوء على معاني الألفاظ وتسمح بتقدير الحقيقة [7]. يتم كل هذا بمراعاة الأصول الثمانية السابق ذكرها.

هذه المرحلة تناسب تعريفي الغزالي والفارابي معا لعلم الكلام، وذلك لأنه دفاع عن العقيدة ضد الفرق التي فيها انحراف من خوارج وروافض ومعتزلة، وضد شبهات الملل والنحل الأخرى من يهود ونصارى ومجوس وغيرهم.

[1] - سورة النساء، الآية 153.
[2] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة، ص 129.
[3] - سورة الأنعام، الآية 103.
[4] - سورة الأنعام، الآية 103.
[5] - فوقية حسين، تقديم كتاب الإبانة ، ص 130.
[6] - المصدر نفسه، ص ص 132، 133.
[7] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص 25.

وتضيف فوقية حسين إلى أصول المنهج عند الأشاعرة :

9- **دراسة كل ما توصل إليه العلم** في مختلف العلوم إنسانية وطبيعية ودقيقة وتوظيفها في الدفاع عن الإسلام [1].

وبهذا نصنف فوقية حسين ضمن مرحلة البعث والتجديد لعلم الكلام، ونتوصل هنا إلى خاتمة هذا المقال.

[1] - فوقية حسين، منهج المسلمين في علم الكلام، ص ص 27، 28.

الخاتمـــة:

تبين لنا من خلال ما سبق آراء فوقية حسين الكلامية، وقد تصدت فيها للدفاع عن مذهب أهل السنة والجماعة وبينت الأخطار التي حاقت بالعقيدة الإسلامية إن من الداخل أو من الخارج، تبنت الأشعرية وأبدعت في تقديمها موضوعا ومنهجا، فكانت من النساء القلائل اللائي خضن غمار البحث في هذا الموضوع الفلسفي الذي يعد بحق صلب الفلسفة الإسلامية، ولكن المعتزلة ظولموا من خصومهم وذلك لأنهم أول فرقة إسلامية تسلحت بالعقل وتصدت لخصوم الإسلام وأبلت في ذلك بلاء حسنا رغم الأخطاء التي وقعوا فيها.

تعد فوقية حسين نموذجا للمرأة العربية الأصيلة وقدوة للمشتغلين بالبحث الفلسفي ذكرانا وإناثا.